

سميح القاسم الشاعر والرسام... الى ان تكتمل الدائرة...

سعاد نصر - مخول

"حتى نكون متساوين حول مائدة المفاوضات ينبغي علي اولاً ان افصح العالم"
بهذه العبارة يفتتح سميح القاسم ديوان شعره "الهي ، الهي ، لماذا قتلتني ؟" سرية. الذي صدر في حيفا
عن مكتبة الاتحاد التعاونية.

وبنفس العبارة يزين شاعرنا لوحة الغلاف التي كان قد رسمها بنفسه لديوان شعره.
علاقة نشاطي الفني بالحركة الثقافية الوطنية والمؤسسات الوطنية ابتدأت عندما قام الزميل نبيل
عويضة الذي كان محرراً في مجلة الغد للشباب بنشر أعمالى الفنية كرسامة ، انا واختي التوأم تريز
حين كنا لا نزال في الصف التاسع . ومنذ ذلك النشر ارتبطت اعمالنا الفنية بمؤسسات الحزب الشيوعي
والمؤسسات الوطنية مثل لجنة الدفاع عن الاراضي، لجنة المبادرة الاسلامية والحركة الطلابية وغيرها،
وكنا ننشر لوحاتنا ورسومات تعبيرية في مجلة الغد وجريدة الاتحاد ومجلة الجديد التي كان يرأسه
تحريرها سميح القاسم.. وإضافة الى ذلك كنا نقوم باعداد البوسترات للمهرجانات والنشاطات العديدة
التي كانت تنظم من قبل الحزب الشيوعي ونقوم برسم اللوحات التعبيرية لدواوين شعر وقصائد ،
واعداد الديكورات لمسرحيات مختلفة.

ومن خلال النشاطات الحزبية والثقافية، التي أخذت مجراها في سياق النهوض الثقافي الالاف الذي شهدته
حيفا في هذه الفترة ، في أطر مميزة مثل "حلقة الشباب" "والمسرح الناهض" ومجلة "الجديد" وغيرها
ربطتني علاقة وثيقة مع الشاعر سميح القاسم، انعكست في التعاون الفني والثقافي بيننا. وكان هذا

الاطار الشبابي " حلقة الشباب " والذي استمر في مراكمة الوعي الثقافي التقدمي في حيفا لسنين طويلة جدا، ينظم النشاطات السياسية والاجتماعية والأدبية، وينشر فهما جديدا لثقافة ثورية بديلة من خلال الندوات والمحاضرات والاحتفالات . كان سميح القاسم يتردد على هذه النشاطات واللقاءات ويضفي عليها رونقا خاصا، ويضيف إليها جمالا نوعيا ، من خلال ما يتحفنا به من ثقافته الواسعة ، وخفة ظله وروحه الشعرية. وكان سميح لاذع العبارة والنقد ولكن بأسلوبه الخاص المرح والصريح ، احبه كل من عرفه..

لقد كان سميح القاسم انسانا واسع الافق مثقفا جدا وكان دائما يبدي رأيه بالاعمال الفنية التي كانت تنشر لي ولغيري من الفنانين.. وكان في كثير من الاحيان يقوم برسم سكتيشات ولوحات بأسلوب تجريدي والتي كان ينشر بعضها ضمن اصداراته ودواوين شعره.

فقد قام بتصميم لوحة الغلاف لديوانه " الهي الهي لماذا قتلتي " والتي تميزت بأسلوب غرافيكي تجريدي بعناصرها الرمزية الفلسطينية، وجمالية خطوطها والوانها، اضافة الى الشكل العام للوحة الذي يرمز الى الشخصية الفلسطينية التي تنتصب بوضوح مطلق وترسم من حولها دائرة عريضة لم تكتمل ... وترمز الى الانفتاح والصمود والتحدي .. وقد وجدت بين لوحاتي القديمة والتي احتفظ بها بالكامل، صورا لهذه اللوحة التي رسمها سميح القاسم وهي ما زالت في مرحلة البناء، وقبل ان يقوم بادخال الوان عليها.. حيث كنت قد قمت بمساعدته بتصميم الغلاف واعداده للطباعة. ولسنوات عديدة كانت هذه اللوحة معلقة في مكتبه. وكان الشاعر قد اهداني النسخة الاولى من هذا الديوان .

من بين الاعمال الفنية الاخرى للشاعر كان تصميمه للوحات الداخلية لديوانه

" احبك كما يشتهي الموت " الذي صدر في شباط ١٩٨٠، وتصميمه لوحة الغلاف واللوحات الداخلية لديوان شعره "كولاج" والذي صدر عام ١٩٨٣ عن مطبعة ابو رحمون في عكا. وقد تراوحت رسوماته في هذين الديوانين بين الرمزية المطلقة وبين الواقعية التجريدية حيث قام باستعمال رموز من التراث الشعبي الفلسطيني في لوحاته الرمزية، ووصف الواقع الفلسطيني المرير والمحاصر بأسلوب تجريدي. وهو ما ميز بشكل خاص لوحات ديوانه " احبك كما يشتهي الموت".

وتظهر جميع اللوحات في هذا الديوان محاطة باطار من الاسلاك والتي تسلط الضوء ايضا على الجانب الذاتي للشاعر . في حين يظهر في لوحة الغلاف لديوانه "كولاج" سلاح الدولة اليهودية موجها الى الانسان الفلسطيني. ومن يتأمل لوحات سميح القاسم يلاحظ جمالية الخطوط والاشكال وترابط الاشكال بالحروف والمعاني بايقاع يتدفق لتنساب الفكرة الى القارئ بسهولة ورقة.

ومن بين أعماله الفنية التي اعتز بها هي الرسومات التعبيرية التي رسمتها لديوانه "الصحراء" الذي صدر عن دار الاسوار في عكا عام ١٩٨٤. في تلك الفترة كان سميح القاسم يرأس جمعية الفنون، وكان

يشغل منصب رئيس اتحاد الكتاب العرب. وقد طلب مني ان اعد له مجموعة من اللوحات المستوحاة من ديوان شعره، وكان له الاثر الكبير في بلورة شكل ومضمون هذا العمل المشترك من خلال طرحه لفكرة وأسلوب اللوحات المرافقة للقصائد.

وفي الفترة نفسها اعدت بطلب منه، لوحات تعبيرية لديوان الشاعر الفلسطيني معين بسيسو: "أبدأت تحصي أضلعك؟" وساهم سميح باختيار اللوحات التي رافقت قصائد الديوان والذي صدر عن دار النشر عربسك عام ١٩٨٣. ومن المفارقات المؤلمة، أنه في الوقت الذي كان فيه الديوان قيد الطباعة، صدمنا نبأ وفاة الشاعر معين بسيسو الذي لم يحظ برؤية ديوانه.

وفي عام ١٩٨٨ قمت بطلب من سميح القاسم - بتصميم غلاف "مجلة ٤٨"- مجلة اتحاد الكتاب العرب، مع اصدار العدد الاول منها. وهو تصميم أعتز به، وقد لاقى اعجابا كبيرا من اعضاء اتحاد الكتاب ومن القراء وما زلت احتفظ بأعداد من المجلة حتى يومنا هذا.

لقد تعددت اشكال الاعمال الفنية التي كنت اقوم بها بالتعاون مع الشاعر الكبير سميح القاسم وخصوصا حين شغل منصب رئيس تحرير مجلة "الجديد" ومحررا في جريدة الاتحاد. فإضافة الى الرسومات التعبيرية للعديد من القصائد التي كانت تنشر له ولشعراء وأدباء آخرين في المجلات والجرائد، فقد كان يهتم بأن يفرّد مكانا بارزا للوحات فنية في صفحات مجلة الجديد وجريدة الاتحاد، وكان للوحاتي نصيب وافر منها. تلك المرحلة التي كانت الحركة الفنية في مدينة حيفا في تصاعد وكانت مدينة حيفا تحتضن العديد من الادباء والفنانين والممثلين والمسرحيين والسياسيين الذين تركوا بصماتهم على المجتمع العربي الفلسطيني. كان الشاعر سميح القاسم احد اعمدتها.

في عام ١٩٩٦ كان سميح القاسم قد انتقل للعمل في مدينة الناصرة ليشغل منصب الرئيس الفخري لجريدة كل العرب وبطلب منه قمت برسم بطاقة ليوم الطفل العالمي تناسب قصيدة أعدها خصيصا لهذه المناسبة، وهي قصيدة قصيرة وجميلة.. وكنت حينذاك أما لطفلي حنا وجنى، فاستوحيت صورة الطفولة بألوانها الدافئة منهما ومن قصيدة شاعرنا الكبير المفعمة بالحب والطموح، والتي تقول:

سَلْمِي لِلشَّمْسِ

عَيْنَانِ وَكِفَانِ وَقَلْبِ

وَدَمِي يَصْعَدُ لِلدَّفءِ وَاللَّنورِ

وَبَرْدِ اللَّيْلِ لَا يَرِحِمِ

والسلم صعب

غير أني قاطف تفاحة الشمس

ففيها ما أحب

وكان اخر لقاء لي مع الشاعر سميح القاسم قبل سنتين - ايار ٢٠١٢، حين قمت بتنظيم معرض "حيفا من هنا انطلقت .." بمناسبة مرور ٢٥٠ سنة على بناء "حيفا الجديدة" على يد ضاهر العمر.. ولم نعلم في حينه انه كان لقاء الوداع...

جاء الشاعر سميح القاسم والكاتب عصام خوري لزيارة المعرض . ودعوت الى استقباله في المعرض في كنيسة الملاك جبرائيل في منطقة حيفا العتيقة..حي محطة الكرمل، مجموعة من اصدقائه القدامى : الاستاذ فتحي فوراني الذي قرأ عليه كلمة جميلة جدا بعنوان "سميح القاسم في عيد ميلاده الخامسة والثلاثين" وقدم له بعضا من اصداراته، والمحامي علي رافع، والمحامي رضا عزام الذي شغل بالماضي مدير المسرح الناهض الذي كان يتردد عليه سميح القاسم، وعصام مخول .

كان اللقاء لقاء تاريخيا أو أصبح كذلك ، واستمر لساعات طويلة، تجاذبنا فيها مع الشاعر الكبير كثيرا من الذكريات والنقاشات، سعة مجالات اهتمامه وحضوره المكثف اللافت .. وقد ابدى شاعرنا سميح القاسم اهتماما كبيرا بالمعرض وأشار الى اهميته في ترسيخ تاريخنا وصمودنا كأقلية فلسطينية واهميتها في توعية الاجيال الجديدة.. و اشار الى الاهمية القصوى في نقل المعرض الى المناطق الفلسطينية المختلفة والى المجتمع الفلسطيني في الشتات.

وفي نهاية اللقاء قدمت للشاعر العزيز لوحة عن مدينة حيفا من أعمالي ، اختارها بنفسه من بين مجموعة اللوحات المعروضة .. على أن نلتقي في معارض قادمة في إطار مشروع "معرض المدن" .. وما لبث سميح القاسم أن وقف في نهاية اللقاء ليطلق مع أصدقائه القدامى ترنيمة جميلة في قلب كنيسة الملاك جبرائيل المرمة في محطة الكرمل ثم يغادر الكنيسة والمعرض ويترك لنا صدى ترنيمة الوداع ، مسرعا الى المجهول .. ومر قطار حيفا مسرعا وعلى وقع صفيره العالي، كان سميح يلوح بيديه ويقول الى اللقاء الى اللقاء يا أعزائي . (اللقاء موثق بشريط DVD).

لقد تركنا سميح القاسم دون ان تكتمل الدائرة التي رسمها على غلاف ديوانه "الهي الهي لماذا قتلتني"، تركنا وما زال شعبنا الفلسطيني يناضل ويقتل بشراسة .. تركنا وما زالت الدائرة مفتوحة تنزف دما .. لكنه رحل فبقي ، وكان فظل ... الى أن تكتمل الدائرة ...

حيفا ٢٥/٨/٢٠١٤